

# مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

**ملف خاص:**

**المخطط الاستعجالي للتربية والتكوين  
(2009-2011)**



العدد الثاني والأربعون - يناير 2010

## الرأسمال الجديد

### كيف تعيد المدرسة توزيع الرأسمال الثقافي؟

في Raisons pratiques

51-Seuil ، 1994 pp 39

بيير بورديو

ترجمة: أحمد القصور

أريد أن أتطرق اليوم للآليات المركبة للغاية التي تساهم (أح على هذه الكلمة) عبرها المؤسسة المدرسية في إعادة إنتاج توزيع الرأسمال الثقافي، وبالتالي إعادة إنتاج بنية الفضاء الاجتماعي. تقابل البعدان الأساسيان لهذا المجال - والذان تطرقت لهما بالأمس - مجموعتان مختلفتان من آليات إعادة الإنتاج، حيث يحدد تركيبها نمط إعادة الإنتاج ويعملان على أن يذهب الرأسمال إلى الرأسمال وعلى أن تتجه البنية الاجتماعية إلى أن تتأبد (ليس من دون أن تخضع لبعض التشويهات المهمة تقريبا). تجري إعادة إنتاج بنية توزيع الرأسمال الثقافي داخل العلاقة بين استراتيجيات الأسر والمنطق الخاص بالمؤسسة المدرسية.

إن الأمر عبارة عن هيات *corporatebodie* متحركة لنوع من التوجه نحو تأييد وجودها / كينونتها *être* الاجتماعي، مع جميع سلطاتها وامتيازاتها، وهو الذي يشكل أساس استراتيجيات إعادة الإنتاج، استراتيجيات الخصوبة، الاستراتيجيات المتعلقة بالزواج، الاستراتيجيات الخاصة بالميراث والترك، الاستراتيجيات الاقتصادية، وأخيرا نذكر بالخصوص الاستراتيجيات التربوية. إنها تستثمر في التربية المدرسية (بزمن النقل والإرسال، وبجميع أشكال المساعدة، وفي بعض الحالات بالمال، كما هو الشأن اليوم في اليابان من خلال مؤسسات الدعم والتقوية التي هي عبارة عن أقسام تحضيرية للمباريات: *yobi-vo juku*) حتى أن رأسمالها الثقافي هو أكثر أهمية وأن الوزن النسبي لرأسمالها الثقافي مقارنة مع رأسمالها الاقتصادي يكون أكبر. كما أن الاستراتيجيات الأخرى لإعادة الإنتاج - (لاسيما الاستراتيجيات المتعلقة بالميراث والترك الهادفة



إلى النقل المباشر للرأسمال الاقتصادي، هي أقل فعالية أو أقل مردودية نسبيا (كما هو الحال اليوم في اليابان منذ الحرب العالمية الأخيرة، وبدرجة أقل في فرنسا).

يُمكن هذا النموذج الذي قد يبدو مجردا جدا من فهم الأهمية المتزايدة التي توليها الأسر المُوسرة (ومن بينها الأسر المكونة من مثقفي أو مدرسين ومن أعضاء ينتمون لمهن حرة) للتربية في جميع الدول المتقدمة، ومن دون شك في اليابان أكثر من أي مكان آخر. كما يسمح هذا النموذج بأن نفهم بأن المؤسسات المدرسية العليا التي تقود إلى المواقع الاجتماعية الأكثر علوا تكون محتكرة كليا أكثر فأكثر من طرف أطفال الفئات الموسرة، ويقع ذلك سواء في اليابان أو في الولايات المتحدة أو في فرنسا. وبشكل أكثر شمولية. يُمكن هذا النموذج من أن نفهم ليس فقط كيف تتأبد المجتمعات المتقدمة، لكن أيضا (نفهم) كيف تتغير تحت تأثير التناقضات النوعية لنمط إعادة الإنتاج المدرسي.

### هل المدرسة هي جنبي ماكسويل ؟

لإعطاء نظرة شاملة على كيفية اشتغال آليات إعادة الإنتاج المدرسي، يمكن في مرحلة أولى أن نتطرق للصورة التي كان يستخدمها العالم الفيزيائي ماكسويل لشرح كيف يمكن أن يتم توقيف فعالية المبدأ الثاني لعلم الدينامية الحرارية: يتخيل ماكسويل جنبا يقوم عند وقوفه أمامه وهو يشتغل على بعض الجزئيات المتحركة الساخنة قليلا أو كثيرا، أي السريعة قليلا أو كثيرا، بفرز حيث يضع الجزئيات الأكثر سرعة في إناء ترتفع حرارته، ويضع الجزئيات الأكثر بطأ في إناء آخر تنخفض حرارته. بهذا الفعل، فإنه يحافظ على الفارق والاختلاف وعلى النظام وإلا فإنه كان سيتجه (الفارق والنظام) إلى التلاشي. يشتغل النظام المدرسي على طريقة جنبي ماكسويل: فعلى الرغم من استهلاك الطاقة الضرورية لإنجاز عملية الفرز، فإنه يحافظ على النظام القائم مسبقا، أي أنه يحافظ على الفارق الموجود بين التلاميذ الذين زودوا بكميات غير متساوية من الرأسمال الثقافي. بشكل أكثر دقة، يفصل النظام المدرسي بواسطة سلسلة طويلة من عمليات الانتقاء بين الحائزين على الرأسمال الثقافي الموروث وأولئك المحرومين منه. ما دام أن الاختلافات في [مستوى] الأهلية غير قابلة للفصل عن الاختلافات الاجتماعية حسب الرأسمال الموروث، فإن هذا الأخير ينتجه إلى الحفاظ على الاختلافات الموجودة سابقا.

لكن، فضلا عن ذلك، ينتج النظام المدرسي أثرين لا يمكن أن نعرض لهما إلا بالتخلي عن اللغة (الخطيرة) للآلية. من خلال إرساء قطيعة بين طلاب المدارس الكبرى وطلاب الكليات، تقيم المؤسسة المدرسية حدودا اجتماعية مشابهة لتلك التي كانت تفصل النبالة الكبيرة عن النبالة الصغيرة، وتفصل هاته عن العوام. يطبع هذا الفصل أو لا ظروف العيش نفسها في ظل التعارض بين الحياة المنزوية في الدخليات والحياة الحرة للطالب في الكليات، ثم يطبع هذا الفصل المضمون، ولاسيما تنظيم العمل التحضيري للمباريات: فمن جهة، هناك تأطير صارم جدا وأشكال للتعليم مدرسية جدا، ولاسيما مناخ الاستعجال والمنافسة الذي يفرض اللين ويقدم مماثلة واضحة مع عالم المقاوله. وفي الجهة الأخرى، نجد الـ «الحياة الطلابية» التي -

بوصفها قريبة من تقليد حياة البوهيميين - تتضمن عددا أقل بكثير من قواعد الانضباط ومن الإكراهات حتى في الوقت المخصص للعمل. كما ينطبع هذا الفصل أخيرا بواسطة وفي المباراة ذاتها وبالقطيعة الشعائرية (تشكل حدودا حقيقية عجيبة) التي يؤسسها من خلال الفصل بين الأخير الذي تم استقباله عن الأول الذي يتوفر على فارق في الطبيعة [يميزه عن الآخرين] مطبوع بحق حمل اسم وشهادة. هذه القطيعة هي عبارة عن عملية سحرية فعلية إبدالها هو الفصل بين المقدس والديوي، كما يحلله دور كايم.

إن فعل الترتيب والتصنيف classement هو دائما - لكن في هذه الحالة بوجه خاص - فعل إصدار الأوامر المقدسة ordination بالمعنى المزدوج الذي تملحه هذه الكلمة في اللغة الفرنسية. إنه يؤسس لاختلاف (فرق) اجتماعي في الرتبة والطبقة ولعلاقة ذات طبيعة نهائية: يُوسَم المنتخبون طيلة حياتهم بانتمائهم (قدماء تلاميذ...)، إنهم أعضاء هيئة [خاصة] بالمعنى القروسطي لكلمة corps وأعضاء مجلس خاص بطبقة النبلاء، مجموعة محددة بشكل واضح (يكون المرء منتما لها أو غير منتم) تتكون من أناس يفصلهم عن عامة الشعب فرق في الجوهر والماهية، وجراء ذلك يكون معترف بها شرعا لكي نهيمن. في ذلك، يكون الفصل الذي تجريه المدرسة أيضا، بمعنى التكريس والإقرار والتصويب داخل فئة مقدسة هي طبقة النبلاء (النبالة).

تمنعنا العادة والألفة من رؤية كل ما تحجبه الأفعال التقنية الصرفة ظاهرا والتي تقوم بها المؤسسة المدرسية. على هذا النحو، يبقى التحليل الفييري [نسبة إلى ماكس فيبر] للدبلوم كـ Bilbungs-partent وللامتحان كسيرورة للانتقاء العقلاني تحليلا جزئيا جدا من دون أن يكون خاطئا. في الواقع، يضع التحليل المظهر السحري للعمليات المدرسية التي تقوم أيضا بوظائف التبرير العقلاني، لكن ليس بالمعنى الذي يطرحه ماكس فيبر... تقدم الامتحانات والمباريات تبريرا عقلانيا لتقسيمات لا تعتمد بالضرورة العقلانية كمبدأ. كما تمنح الشهادات التي تقرر نتيجة تلك الامتحانات والمباريات كضمانات للكفاية التقنية، وهي بمثابة شهادات للكفاية الاجتماعية قريبة جدا في ذلك من ألقاب النبالة. في جميع المجتمعات المتقدمة، في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية أو اليابان، يظل النجاح الاجتماعي من الآن فصاعدا رهينا بشكل وثيق جدا للفعل أولي للتعين (فرض اسم معين، عادة ما يكون اسم مؤسسة تربوية، جامعة توداي Today أو جامعة هارفارد، مدرسة البوليتيكنيك) يكرس على المستوى المدرسي اختلافا وفرقا اجتماعيا موجوا مسبقا.

إن تسليم الدبلومات الذي غالبا ما يتم في مراسم احتفالية رسمية هو قابل للمقارنة تماما مع حفلة تدرية الفارس. تحجب الوظيفة التقنية المفرطة الوضوح التي تخص التكوين ونقل كفاية تقنية وانتقاء الأشخاص الأكثر كفاية من الناحية التقنية، [تحجب] وظيفة اجتماعية هي تكريس الحائزين النظاميين على الكفاية الاجتماعية، تكريس لحق القيادة le droit de diriger. هكذا، لدينا في اليابان كما هو الشأن في فرنسا، نبالة مدرسية موروثية تتكون من مديري المقاولات الصناعية وكبار الأطباء وسامي الموظفين: بل وحتى من القادة السياسيين. كما تتضمن جزءا مهما من ورثة نبالة الدم القديمة الذين حولوا شهاداتهم النبيلة [نبالة الدم] إلى شهادات مدرسية [نبالة مدرسية].

هكذا، فإن المؤسسة المدرسية التي اعتقدنا في أزمة أخرى بأن باستطاعتها أن تدخل شكلا من الاستحقاق الديمقراطي من خلال تفضيل المؤهلات الفردية على الامتيازات الموروثة، تتجه (المؤسسة المدرسية، عبر الربط الخفي بين الأهلية المدرسية والإرث الثقافي إلى إرساء نبالة فعلية للدولة تضمن سلطتها ومشروعيتها بواسطة الشهادة المدرسية.

وتكفي العودة إلى التاريخ لكي نرى بأن سلطان هذه النبالة النوعية التي انطلقت وهي مرتبطة بالدولة هو نهاية ونتيجة لسيرورة طويلة: ذلك أن نبالة الدولة في فرنسا، من دون شك في اليابان أيضا هي هيئة corps خلقت نفسها بنفسها من خلال إحداث الدولة. كان عليها أن تخلق الدولة من أجل أن تخلق نفسها كحائزة على الاستثناء النوعي بسلطة الدولة. فنبالة الدولة هي وريثة ما نسميه في فرنسا بنبالة الفستان التي تتميز عن نبالة السيف، والتي تتوحد معها (في الغالب أكثر فأكثر بواسطة الزيجات بالقدر الذي تتقدم فيه في الزمن) في كونها تستمد وضعها الاعتباري من الرأسمال الثقافي ذي النمط القانوني أساسا.

لا يمكنني أن أذكر هنا بمجموع التحليل التاريخي الذي بدأت في الفصل الأخير من كتاب نبالة الدولة، من خلال اعتمادي على أعمال مؤرخي التربية ومؤرخي الدولة ومؤرخي الأفكار التي نادرا ما يتم تقييدها. يمكن للتحليل التاريخي أن يشكل أساسا لمقارنة منهجية مع السيرورة (المماثلة تماما في رأيي، على الرغم من الصعوبات الظاهرة)، التي قادت المحاربين اليابانيين [الساموريات] في العهد الإقطاعي الذين كان قسم منهم قد سبق له أن تحول إلى بيروقراطية متعلمة في غضون القرن XVII إلى الترويج في النصف الثاني من القرن 19 لدولة حديثة قائمة على هيئة من البيروقراطيين تجمع بين الأصل النبيل وثقافة مدرسية قوية ومهتمة بالتعبير وفرض استقلاليتها في وبواسطة عبادة للدولة الوطنية متجذرة بشكل مباشر جدا في الأرستقراطية وفي شعور قوي بالتفوق على الصناعيين والتجار بصرف النظر عن السياسيين.

إذن، لتوضيح النقطة المتعلقة بحالة فرنسا، يلاحظ بأن اختلاق الدولة، وبصفة خاصة اختلاق أفكار «العمومي» و«الثروة المشتركة» و«الخدمة العمومية» التي تشكل نواتها [الدولة] هو غير قابل للفصل عن اختلاق المؤسسات التي تؤسس سلطة نبالة الدولة وإعادة إنتاجها.

هكذا، على سبيل المثال، فإن مراحل تطوير المؤسسة المدرسية (وبصفة خاصة ظهور مؤسسات من نوع جديد في القرن XVII هي الثانويات الإعدادية les collèges حيث تخلط بعض فصائل الأرستقراطية مع بورجوازية الكساء [القضاة والمحامون] في داخلات تعلن عن النظام الحالي للمدارس الكبرى) تزامن مراحل تطوير بيروقراطية الدولة (وبشكل ثانوي تزامن مراحل تطور بيروقراطية الكنيسة على الأقل في القرن XVI). تصاحب عملية استقلال الحقل البيروقراطي وتكاثر المواقع المستقلة للسلطات الدنيوية والروحية القائمة (تصاحب) تطور [بروز] بورجوازية ونبالة الكساء التي ترتبط مصالحها - لا سيما في ما يتعلق بإعادة الإنتاج - بشكل وثيق بالمدرسة. وسواء في أسلوب عيشها الذي تخصص فيه حيزا كبيرا للممارسات الثقافية أو في منظومة قيمها، فإن هذا النوع يُعرف نفسه - خلافا من جهة للاكليروس [كهنة المدينة] ومن جهة

أخرى لنبالة السيف الذي تنتقد إيديولوجية ولادته - باسم الاستحقاق وما سيمسى لاحقا بالكفاءة. أخيرا، لقد تم داخل الكساء الاختلاق الجماعي - حتى وإن كان تاريخ الأفكار يعزل أسماء الأعلام - للإيديولوجيا المعاصرة للخدمة العمومية وللثروة المشتركة والشأن لعام، أي باختصار ما سمي «بالنزعة الإنسانية المدنية للموظفين» التي ستلهم الثورة الفرنسية، لاسيما عبر المحامين المنتمين لمنطقة لاجيروند.

إذن، من أجل فرض النفس في الصراعات التي تواجه فيها الطبقة الجديدة الفصائل المهمة الأخرى (نبلاء السيف، وكذا بورجوازية الصناعة والتجارة الكبيرة)، يجب على هذه الطبقة التي تقوم سلطتها على الرأسمال الجديد (الرأسمال الثقافي) أن تنقل مصالحتها إلى درجة عالية من التعميم، واختلاق صيغة يمكن نعتها بالـ «تقدمية» (مقارنة مع التنويرات الأرستقراطية التي سيختلفها فيما بعد الموظفون الألمان والموظفون اليابانيون) للإيديولوجيا الخدمة العمومية والاستحقاق الديموقراطي.

فمن خلال المطالبة بالسلطة باسم الكوني، يقوم النبلاء وبورجوازية الكساء بتسريع الموضوعة وبالتالي [تسريع] جدوى الكوني على مدى التاريخ، ولا يمكنهم أن يستخدموا الدولة التي يدعون أنهم يخدمونها من دون أن يخدموا ولو بشكل قليل جدا القيم الكونية التي يماثلونها معها.

## الفن أو المال؟

كان بوسعي أن أوقف حديثي هنا، لكني أريد أن أعود بسرعة إلى صورة جني ماكسويل التي استخدمتها لدواعي الإيضاح، غير أنها (مثل جميع المجازات المستعارة من الفيزياء، وهو بصفة خاصة من الدينامية الحرارية) تعتمد فلسفة للعمل خاطئة تماما وروية محافظة للعالم الاجتماعي (كما يشهد على ذلك استعمالها الواعي أو اللاواعي من قبل أولئك الذين يدينون، كهايدجر مثلا، «التسوية» والإبادة التدريجية للفروقات «الأصيلة» في الثقافة عديمة الأهمية والطعم للقيم «المتوسطة»). في الواقع، إن العملاء الاجتماعيين الذين هم التلاميذ الذين يختارون شعبة أو تخصصا معرفيا [مبحثا علميا] معيناً والأسر التي تختار مؤسسة [تربوية - تعليمية] لأطفالها ليسوا «جزئيات» خاضعة لقوى ميكانيكية وتعمل تحت ضغط الأسباب، كما أنهم ليسوا ذواتا واعية وعارفة تخضع لمبررت [عقلية] وتفعل عن خبرة كاملة بالمسألة. كما يعتقد بذلك المدافعون عن نظرية الفعل العقلاني Rational Action theory (كان بإمكانني أن أبين إذا توفر لدي الوقت الكافي بأن هذه الفلسفات المتعارضة كلياً في الظاهر تختلط في الواقع، ما دام أنه إذا كانت معرفة ترتيب الأشياء والأسباب كاملة، وإن كان الاختيار منطقياً بشكل كامل، فإننا لن نرى فيهم سيختلف الامتثال الصرف والسيط لقوى العالم. وفيهم يبقى اختياراً نتيجة لذلك).

في الواقع، إن «الذوات» هي بمثابة عملاء يفعلون. إنهم فاعلون وعارفون مزودون بحس عملي (هذا هو العنوان الذي وضعته للكتاب الذي أعرض فيه هذه التحليلات)، أي بنظام مكتسب من التفضيلات، مبادئ الرؤية والتقسيم (ما يسمى عادة بالذوق)، بنيات معرفية مستديمة (هي في الأساس نتاج لمزيج من البنيات

الموضوعية)، ومن رسوم خيالية للعمل توجه إدراك الموقف والجواب الموافق [له]. إن الهابيتوس [المظهر التكويني والفيزيقي البيئي] هو هذا النوع من الحس العملي التجريبي بما يتعين فعله في موقف / وضعية معينة - وهو ما يسمى في الرياضة بالحس باللعب: فن استباق مستقبل اللعب المكتوب بالنقط في الحالة الراهنة للعب. لإعطاء مثال من ميدان التربية، يصبح الحس باللعب ضرورياً أكثر فأكثر كلما تنوعت واختلط الشُّعب. كما هو الحال في فرنسا وأيضاً في اليابان (كيف يتم الاختيار بين مؤسسة ينحدر صيتها ومدرسة - ملجأ توجد في حالة صعود). يصعب استباق حركات بورصة القيم المدرسية، وفي استطاعة أولئك الذين بإمكانهم أن يستفيدوا بواسطة عائلاتهم وآبائهم وإخوانهم أو أخواتهم، الخ أو علاقاتهم من معلومة حول شبكات التكوين ومروديتها التفاضلية الحالية والكامنة أن يضعوا بشكل أفضل استثماراتهم المدرسية وجني أفضل فائدة من رأسمالهم الثقافي. هنا تكمن إحدى الوساطات التي يرتبط بواسطتها النجاح المدرسي والاجتماعي بالأصل الاجتماعي.

بعبارة أخرى، تحمل الـ « جزئيات » التي تتقدم نحو « الجني » في داخلها (أي داخل هابيتوسها) قانون إدارتها وحركتها، أي مبدأ « النزوع » الذي يوجهها نحو هاته المؤسسة أو ذلك التخصص. وقد حلت بشكل مطول كيف يجد الثقل النسبي للرأسمال الاقتصادي وللرأسمال الثقافي (ما يسمى ببنية الرأسمال) داخل رأسمال المراهقين (أو رأسمال عائلاتهم) نفسه وقد استرجع داخل نظام التفضيلات الذي يدفعهم إلى تفضيل إما الفن على حساب المال، أو الشؤون الثقافية على شؤون السلطة، الخ وإما العكس، كما حلت كيف تشجعهم بنية الرأسمال هاته بواسطة نظام التفضيلات التي تنتجها على أن يوجهوا أنفسهم / يتوجهوا في اختياراتهم المدرسية، ثم الاجتماعية نحو هذا القطب أو ذاك من أقطاب حقل السلطة، أي القطب الفكري أو قطب الأعمال، كما تشجعهم على أن يثبتوا الممارسات والآراء المطابقة (هكذا يفهم ما يبدو أنه بديهي لأنه تم التعود عليه، كأن يدعي طلبة المدرسة العليا؛ أساتذة المستقبل بأنهم ينتمون لليسار ويقرؤون المجالات الثقافية ويذهبون كثيراً إلى المسرح والسينما ويمارسون الرياضة بشكل قليل، الخ، في حين أن طلبة HEC يقولون عن أنفسهم إنهم ينتمون بالأحرى إلى اليمين ويهتمون بشدة في ممارسة الرياضة، الخ).

كذلك، عوضاً عن الجني، يوجد (من بين أشياء أخرى) آلاف من الأساتذة الذين يطبقون على تلاميذهم مقولات للإدراك وللتقدير مبنية حسب نفس المبادئ (لا يمكنني هنا أن أعرض التحليل الذي قمت به لمقولات الفاهمة المحذقة l'entendement professoral وللأزواج من النعوت مثل لامع / جدي التي يطبقها المعلمون للحكم على إنتاجات تلاميذهم وعلى جميع طرق عيشهم وفعلهم). بعبارة أخرى، إن عمل النظام المدرسي هو حاصلة الأعمال المنسقة بفضاظة تقريباً التي قام بها آلاف من صغار جني ماكسويل، والتي تنزع بواسطة اختيارها المرتب حسب النظام الموضوعي إلى إعادة إنتاج هذا النظام من دون معرفته ولا إرادته (إرادة وجود هذا النظام).

لكن استعارة الجني خطيرة من جهة أخرى، لأنها تفضل استيهام المؤامرة الذي غالباً ما يلزم ويلاحق

الفكر النقدي، أي فكرة [وجود] إرادة عدوانية قد تكون مسؤولة عن كل ما يحدث داخل العالم الاجتماعي في السراء ولاسيما في الضراء. إذا كان ما يحق لنا وصفه تسهيلا للفهم كآلية تعاش أحيانا كنوع من الآلة الجهنمية (يتم الحديث كثيرا هنا عن «جحيم النجاح»); كمتشابك تراجيدي يكون خارجا عن العملاء وعاليا عليهم، فلأن كل واحد من العملاء مكره على هذا النحو على المشاركة - من أجل أن يوجد - في لعبة تفرض عليه جهودا جبارة وتقديم تضحيات هائلة.

في الواقع، أعتقد أن النظام الاجتماعي الذي تضمنه صيغة إعادة الإنتاج ذات التكوين المدرسي تجعل حتى أولئك الذين يستفيدون أكثر منه يخضعون لدرجة من الضغط قابلة تماما للمقارنة مع الضغط الذي كان يفرضه مجتمع المجلس كما يصفه إلياس، كان يفرضه حتى على أولئك الذين كانوا يتمتعون بالامتياز الرائع بأن يكونوا جزءا منه: «في التحليل الأخير، بالفعل إن ضرورة هذا الصراع من أجل الحصول على فرص التمتع بالقوة وعلى المكانة والأبهة المهددة دائما هي التي كانت تدفع المهتمين - بسبب البنية المراتبية ذاتها لنظام الهيمنة - إلى الخضوع لإجراء مرسومي يشعر به الجميع كعبء ثقيل. لم يكن لأي شخص من الأشخاص المكونين للجماعة الفرصة لتحريك عجلة الإصلاح. كانت أقل محاولة للإصلاح وأقل تعديل لبيئات بقدر ما هي هشة، فإنها لينت (كان) سيؤدي بلا ريب إلى الوضع موضع تساؤل أو التقليل أو حتى إلغاء حقوق وامتيازات الأفراد أو الأسر. كان نوع من المحرم يمنع الطبقة العليا لهذا المجتمع من الوصول إلى مثل هذه الفرص للحصول على القوة وأيضا بشكل أقل [كان يمنعها] من إلغاءها. كل محاولة في هذا الاتجاه كانت ستعنى ضدها طبقات واسعة من الامتيازات التي كانت تخشى، ربما عن خطأ، أن تتعرض بنيات السلطة التي كانت تمنحها هذه الامتيازات لخطر الاستسلام أو الانهيار إذا ما تم المساس بأدنى تفصيل خاص بالنظام القائم. هكذا، لم يتغير أي شيء»<sup>1</sup>.

في اليابان كما في فرنسا، نجد أن الآباء المرهقون والشباب المنهك والمشغولون الذين خاب أملهم في نتائج تعليم يعتبرونه غير ملائم. هم ضحايا عاجزون لآلية ليست شيئا آخر غير الأثر المتراكم لاستراتيجياتهم المولدة والخاضعة لمنطق تنافس الجميع ضد الجميع.

من أجل الانتهاء أيضا من التمثيل المشوه والكاريكاتوري الذي أعطاه بعض المحللين ضعيفي الإلهام أو سيئي النية، سيتوجب أن يتوفر لدي الوقت الكافي لكي أبين هنا كيف يمكن لمنطق طريقة إعادة الإنتاج ذات التركيب المدرسي - ولاسيما طابعه الإحصائي - وللتناقضات التي تميزه أن تكون في أن ومن دون تناقض في أصل إعادة إنتاج بنيات المجتمعات المتقدمة وعدد من التغيرات التي تصيها. تشكل هذه التناقضات (التي حللتها لاسيما في الفصل المعنون بـ «classement, déclassement, reclassement».

في كتابي<sup>2</sup> la distinction من دون شك المبدأ المخفي لبعض النزاعات السياسية المميزة للحقبة الأخيرة، كحركة ماي 68 التي (نفس الأسباب المنتجة لنفس الآثار)، هزت الجامعة الفرنسية والجامعة اليابانية تقريبا في نفس الوقت ومن دون أن تتوفر القدرة على افتراض أي تأثيرات مباشرة عليها. في كتاب آخر من





كثبي الذي عنونت بنوع من الاستهزاء Homo academicus، حلت بشكل مطول العوامل التي حددت أزمة العالم المدرسي الذي كانت حركة ماي هي تعبيرها المرئي، وهي الإنتاج المفرط للدبلومات وفقد لقيمة هذه الدبلومات (وهما ظاهرتان تسمان اليابان أيضا، إذا ما صدقت ما قرأت في هذا الصدد)، والتخفيض / فقد قيمة المواقع الجامعية، لاسيما التابعة منها والتي تكاثرت من دون أن تفتح المسارات المهنية نتيجة لذلك، نظرا للبنية العتيقة تماما للمراتبية الجامعية (هنا كذلك كنت أود أن أقوم باستقصاء ميداني مقارنة عن الشكل الذي تتخذه في اليابان الروابط بين الزمان والسلطة كما سبق لي أن حللتها في فرنسا).

وأعتقد أنه داخل تغيرات الحقل المدرسي، ولاسيما تغيرات العلاقات بين الحقل المدرسي والحقل الاقتصادي، وفي التحول الذي طرأ على التطابق بين الشهادات المدرسية والمناصب، يمكن العثور على المبدأ الحقيقي للحركات الاجتماعية الجديدة التي ظهرت في فرنسا كامتداد لما حصل في ماي 1968، وموخرأ أيضا كظاهرة «التنسيقيات» الجديدة جدا والتي (إذا ما صدقت أقوال المؤلفين الذين اعتمدت عليهم) بدأت تظهر سواء في ألمانيا أو في اليابان، لاسيما عند العمال الشباب الأقل وفاء من قدامئهم للأخلاقيات التقليدية للعمل. كذلك، فإن التغييرات السياسية التي تلاحظ في الاتحاد السوفياتي وكان يمهد لها في الصين ليست من دون روابط مع النمو المعترف لجزء من ساكنة هذه البلدان التي مرت من التعليم العالي التناقضات والتي نتجت عنه وبالدرجة الأولى داخل حقل السلطة ذاته.

لكن، سيتوجب أيضا أن نعالج الرابطة بين الانحراف المدرسي الجديد الأكثر تطورا في اليابان منه في فرنسا ومنطق المنافسة المحتدة الذي يهيمن على المؤسسة المدرسية، ولاسيما أثر المصير الذي يمارسه النظام المدرسي على المراهقين. بواسطة تعنيف نفسي كبير جدا، غالبا ما تفرض المؤسسة المدرسية أحكامها النهائية التي تضع جميع التلاميذ داخل مراتبية وحيدة لأشكال التفوق حيث يهيمن عليها اليوم مبحث الرياضيات. يجد المقصيون أنفسهم محاكمين باسم معيار معترف به جماعيا وصدق عليه، وبالتالي غير قابل للمناقشة نفسيا وغير مناقش: إنه معيار الذكاء. كذلك، أليس لهم ملجأ آخر من أجل ترميم هوية مهددة سوى القطيعات المفاجئة مع النظام المدرسي والنظام الاجتماعي (في فرنسا، لوحظ أن عددا من عصابات المنحرفين تتشكل وتلتحم داخل التمرد ضد المدرسة، أو، كما هي الحالة أيضا، الأزمة النفسية، بل المرض العقلي أو الانتحار.

كما ستوجب أخيرا تحليل جميع الاختلالات الوظيفية التقنية التي تنجم - من وجهة نظر المردودية التقنية الضيقة (داخل المؤسسة المدرسية وما بعدها) - عن الأولوية الممنوحة لاستراتيجيات إعادة الإنتاج الاجتماعي. على سبيل المثال، لن أذكر سوى الوضع الاعتباري السفلي الذي يعطى بكيفية موضوعية للتعليم العام من طرف الأسر. من المحتمل أنه في اليابان كما في فرنسا، حيث ينصح كبار القادة الذين هم أنفسهم خريجو الجامعات العمومية الكبرى في اليابان أو خريجو المدارس الكبرى في فرنسا بإعادة تقدير تعليم تقني مختزل في وضعية الملجأ أو مستودع الأشياء العتيقة (وهو وضعية منافسة التعليم الخصوصي، لاسيما

في اليابان، إلا أنهم سيعتبرون إنزال أبنائهم إلى التعليم التقني ككارثة. ويحصل نفس التناقض في ازدواجية [موقف] هؤلاء القادة اتجاه نظام تعليمي إن لم يكونوا مدينين له بموقعهم، فعلى الأقل بالسلطة والمشروعية التي يشغلونها بها، كما لو أنهم كانوا يريدون الحصول على الأرباح التقنية للعمل المدرسي من دون أن يتحملوا أعباءه الاجتماعية (مثل المتطلبات والضمانات المرتبطة بتملك شهادات يمكن أن نعتها بالكونية، خلافاً للشهادات «الوطنية» المسلمة من طرف المقاولات). إنهم يشجعون ويفضلون التعليم الخصوصي ويدعمون أو يُلهمون جميع المبادرات السياسية الهادفة إلى التقليل من استقلالية المؤسسة المدرسية ومن حرية الهيئة التعليمية. إنهم يظهرون الالتباس الأكبر في المجادلة le débat حول خصخصة التعليم، كما لو أنهم يريدون الحصول على مكاسب جميع الاختيارات: الحدود والضمانات المرتبطة بتعليم متخصص بشكل عالي والانفتاح والجاهزية التي يشجعها تعليم الثقافة العامة الخاص بتطوير مهارات التكيف الملائمة لمستخدمين متحركين و«مرنين»، أو كذلك التأمينات وأنواع الأمن التي يمنحها «السادة الشباب» خريجو المدرسة الوطنية للإدارة L'ENA أو جامعة توداي Today. حيث إنهم عبارة عن مسيرين متوازنين لمواقف التوازن، ومن جهة أخرى غرائب «الذئاب الشباب» الذين خرجوا من الصف والمفترض أنهم أكثر تأقلماً مع أوقات الأزمة.

لكن، إذا كان مسموحاً لعالم الاجتماع لمرة واحدة فقط التي ينجز توقعات، فإنه من دون شك، يكمن داخل العلاقة المتوترة أكثر فأكثر بين النبالة الكبيرة والنبالة الصغيرة للدولة مبدأ الصراعات المستقبلية الكبيرة، وبالتالي فإن كل شيء يسمح بالافتراض بأنه، أمام قدماء المدارس الكبرى في فرنسا والجامعات العمومية الكبرى في اليابان الذين يميلون أكثر فأكثر إلى الاستئثار الدائم بجميع المواقع الكبيرة للسلطة داخل الأبنك والصناعة والسياسة، فإن الحاصلين على شهادات من الدرجة الثانية (صغار سامورايات الثقافة) سينزعون من دون شك إلى التذرع في كفاحاتهم من أجل توسيع الجماعة المتحكمة في السلطة بتبريرات كونياتية universaliste، كما قام بذلك في القرن XVI في فرنسا وحتى في بدايات الثورة الفرنسية صغار النبلاء القرويين، أو [قام بذلك] في اليابان في القرن 19 صغار السامورايات المقصيين الذين قادوا التمرد على إصلاح مييجي Meiji باسم «الحرية والحقوق المدنية».

## الهوامش

\* - محاضرة ألقاها ب. بورديو في جامعة توداي في أكتوبر 1989 ونشرت في - Raisons pratiques دار النشر، لوسوي، 1994 - ص 39-51.

1 - Norbert Elias, la société de cour, Paris, Flammarion, 1983, p 330.

2 - انظر كتاب:

La distinction, op.cit, p 147-187.